الفصل الثاني
محاولات فلسفية لتبرير انقطاع النبوة غير التشريعية

هـــناك محاولـــتان قام بهما مفكرون ورجال دين مسلمون للخروج بتبرير منطقي لانقطاع مجيء الأنبياء، حتى الأنبياء الذين لا يحملون شريعة جديدة من الله تعالى. وتقوم المحاولة الأولى على موضوع الحاجة إلى مجيء نـــبي جديد، فيقولون إن مجيء الرسول ﷺ، وهو النبي الكامل الذي جاء من الله تعالى يحمل الشريعة الكاملة، يلغي تماما أية حاجة لمجيء نبي تابع. وبطبيعة الحال.. فإنه يمكن قبول ذلك فيما إذا أمكن فعلا إثبات أن مجيء هـــذا النبي الكامل بهذه الشريعة الكاملة يضمن تماما عدم وقوع الانحراف في فهـــم هذه التعاليم الكاملة المتضَمنة في كتاب الله المجيد وسُنة رسوله، وبهـــذا يظل الناس على طريق الهدى المستقيم، متمسكين بأهداب التقوى والصـــلاح. ولكن بكل أسف.. إن هذا لأمر لا يمكن إثباته لا عمليا ولا تاريخيا.

والحقـــيقة إن هذا الرأي لا يؤيده أي دليل ذي معنى أو منطق يقنع العقـــل، لأن المهمة التي يؤديها الأنبياء لا تنحصر فقط في إحضار كتاب شـــريعة مـــن الله تعـــالى. إن النبوة في ذاتها أمر لـــه عديد من الجوانب العظيمة والتأثيرات الهامة. ولا يستطيع أحد أن يزعم أبدا أنه بعد اكتمال الشـــريعة في الكـــتاب والسُّنة.. لم يعد لوجود الرسول ﷺ أية أهمية على الإطـــلاق، والاحتفاظ بالكتاب وبسنة النبي حامل الشريعة لا يكفي بعد وفاتـــه لأن يكون بديلا للنبوة. ويكفي لتوضيح هذا الأمر ما حدث مع المســـلمين بعـــد انـــتقال الرســـول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حيث ظهر الاضـــمحلال الـــذي استمر يؤثر بشكل متزايد على المجتمع الإسلامي،

فقامـــت خلافـــات أدت إلى الاقتتال بين المسلمين، وانقسموا إلى فِرَق ومذاهـــب ظلـــت تتزايد وتتفاقم. والفرْق الشاسع بين أحوال المسلمين الروحـــية مـــن تقوى وصلاح أثناء وجود الرسول ﷺ بينهم خلال فترة حـــياته الشريفة، وبين أحوال المسلمين الآن.. أمر لا يحتمل المقارنة. ومع ذلـــك فـــإن الشـــريعة الكاملة لا تزال كما هي محفوظة بأمر الله تعالى، والكتاب لا يزال كما هو لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـــن خلفه، وظل كما هو، كاملا بدون تغيير أو تحريف كما كان قبل الأربعة عشر قرنا الماضية.

أمـــا التبرير الثاني لفكرة الآخرية المطلقة وانقطاع مجيء الأنبياء بكافة أنواعهـــم فيقوم على نظرية ارتقاء الإنسان ووصوله إلى مرحلة النضوج الفكري. والمناصر الأكبر لهذه النظرية هو العلامة والمفكر والشاعر العظيم محمـــد إقـــبال، الـــذي يعتبره البعض أكبر المفكرين المسلمين في الأزمنة الحديثة. وفكرة النضوج الفكري هذه تقوم على افتراض أن القرآن المجيد قـــد نزل من الله تعالى حينما وصل الإنسان إلى مرحلة النضوج الفكري، وعـــلى هذا.. لم يعد الإنسان بحاجة إلى هدي آخر من أي مبعوث آخر، على عكس الأجداد الذين رحلوا في الأزمنة السابقة. وللوهلة الأولى تبدو هـــذه الـــنظرية كأنهـــا فكرة فلسفية جميلة، ولكن بعد إمعان النظر فيها ودراســـتها بعمق يتبين خواؤها وخلوها من أية قيمة. فإن الأساس نفسه الذي تقوم عليه هذه النظرية من أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة النضوج الفكـــري، حـــتى إنه أصبح قادرا وحده على استنباط الحقائق، وانتهاج المنهج الصحيح السليم للسلوك من تعاليم الدين الكامل، هو أساس يخضع للنقاش والجدل من نواحٍ عدة.

ويـنـــبغي ألا ننســـى أن الإنسان كان دائما وعند كل منعطف من مـــنعطفات التقدم يعتبر نفسه قد وصل إلى قمة النضوج الفكري، وعند كل مرحلة من مراحل التاريخ.. كان الجيل الذي يعيش تلك المرحلة يعتبر

نفســه أيضــا قــد بلغ قمة التقدم الإنساني. وكان الناس إذا نظروا من موقعهم الذي وصلوا إليه إلى الأجيال السابقة، كانت تلك الأجيال تبدو لهــم أقل نضوجا وأقل تقدما منهم، ومع ذلك فلم يحدث أبدا أن تصرف الإنســان وحــده في أي مرحلة من مراحل التاريخ بحكمة تكفي لهداية نفســه. وعلى الدوام كانت ترتفع رؤوس ورؤساء مثل فرعون لتتحدى الهــدي الإلهي، وكان المتمردون على الهدي الإلهي يرفضون قبول الأنبياء الذين جاءوا إليهم في أزمانهم مستخدمين نفس المنطق المغلوط الذي يعتمد على نضوجهم الفكري، وكرر الجميع مرارا نفس الادعاء بأنهم قد بلغوا مــرحلة مــن التقدم الفكري يكفل لهم تقرير أمورهم بأنفسهم. غير أن الــتاريخ يبين أن كل تلك الأجيال كانت على خطأ. وعلى ذلك.. فمن السذاجة بمكان الزعم بأن الجيل المعاصر هو الوحيد الذي وصل بالإنسان أخــيرا إلى الاكــتفاء بقدراتــه الذاتــية لكل متطلبات تقدمه الأخلاقي والروحاني.

كذلك يتضح زيف فكرة النضوج الفكري من خلال وقائع وحقائق الــتاريخ. فبعد وفاة الأنبياء لطالما كانت تقع الانقسامات، وتتعدد الفرق الدينــية التي تتولى تقديم التفسيرات المختلفة والمفاهيم المتباينة للتعاليم التي أتــى بهــا الأنبــياء، وكانت هذه ظاهرة عامة لم يخل منها أتباع نبي من الأنبــياء على الإطلاق، ولم ينج منها المسلمون أيضا. وهكذا يتضح أن موضوع بلوغ النضوج الفكري المزعوم لا يؤهل الإنسان لاستنباط الفهم الصحيح للصحف المقدسة، وإنما يقتضي الأمر هديا إلهيا.

وإذا كــان "النضــوج الفكــري" للإنسان يعني أنه يستطيع وحده استخلاص الحقائق من دراسته للصحف المقدسة، لكان من المحتم أن ينتج عن ذلك وحدة واتفاق كامل على جميع الأسس في التعاليم الدينية. ولكن للأســف إن ما نراه اليوم عمليا وكواقع فعلي ملموس، يُعد فشلا ذريعا لهذه الفكرة. والمسلمون الذين تشرفوا بتلقيهم من الله تعالى الكتاب الإلهي

الكـــامل والأخـــير.. نجـــد أنهـــم ليسوا أقل فُرقة وانقساما، فيما يختص بالتفســـير، من غيرهم من أتباع الأديان الأخرى. فما جدوى ما يسمى بالنضـــوج الفكـــري للإنسان؟ إن تاريخ الأديان يثبت بما لا يدع مجالا للشـــك بأنـــه إذا بدأ الناس ينقسمون إلى فِرق ونحل ومذاهب، فإنهم لا يـــتخلون أبدا عن هذا الانقسام والتشيع ليعودوا إلى التوحد نتيجة لجهود الإنســـان وحده. وتنطبق نفس هذه الحالة بدون أدنى شك على المسلمين الـــيوم أيضـــا. وبغير أن تتدخل السماء عن طريق المصلح الرباني، فمن المستحيل جمع المسلمين وتوحيدهم مرة أخرى تحت راية واحدة. ولكنهم بكـــل أسف يرفضون هذا الإجراء السماوي، رغم أنه باب الأمل الوحيد المفتوح أمامهم.

إن وجـــود مـــا يـــزيد عن سبعين فرقة بين المسلمين.. رغم وجود الكتاب المحفوظ والسُّنة المتواترة والأحاديث الشريفة المحققة.. كلها تقف دلـــيلا على عدم صحة الفكرة الفلسفية للشاعر إقبال عن نظرية النضوج الفكري للإنسان.

والاخـــتلافات الـــتي تُـــباعد بين هذه الفرق الإسلامية ليست مجرد اخـــتلافات هامشية، وإنما هي أساسية وعميقة، كما أنها تتزايد وتتأصل بمرور الزمن. وعندما نضيف إلى هذه الاختلافات الفقر الأخلاقي المنتشر في العالم الإسلامي، ومأساة وجودهم وكأنهم جسد ميت فقد الحياة، فإن الأمـــر يصـــير مؤســـفا يثير كثير الحزن وشديد الأسى. وإذا كان الأمل الوحـــيد الـــذي يمكن أن يبعث فيهم الحياة هو اعتمادهم على نضوجهم الفكـــري، فلنقل على الدنيا السلام، والأوْلى بالمرء أن يتوضأ كي يكون عـــلى استعداد لحضور صلاة الجنازة وقراءة الفاتحة والترحم على الماضي الذي لن يعود.

يـــا لها من مأساة مفجعة! لماذا لا يدرك هؤلاء الناضجون فكريا أن كـــتابا محفوظا فقط لا يكفي لتزكية النفوس وتطهير القلوب؟ إذ لو كان

الأمـــر كذلك لاستطاع المسلمون الحفاظ على مكانتهم المثلى ووحدقم الفكرية، غير أن الواقع العملي بكل أسف يبعد عن هذه المثالية التي كانت تتمتع بها الأمة في بدايتها.. بُعد الشرق عن الغرب، والسماء عن الأرض.

إن كـــل ما يمكن أن يُقال هنا دفاعا عن الفكرة التي قدمها الدكتور إقـــبال لإغـــلاق نـــافذة النور الإلهي بهذا السُّخْف الذي يسميه النضوج الفكـــري.. هو أنه لم يخترع تلك الفكرة بنفسه، وإنما كانت سقطته هي أنه اقتبس بغير تفكير عميق نظرية الفيلسوف الألماني المعروف نيتشه. فإن نيتشه هو أول من استخدم فكرة النضوج العقلي في العصر الحديث لينفي وجـــود أيـــة حاجة لتلقي الهداية من الله تعالى. وفي الواقع.. كان نيتشه يحـــض الإنسان على أن يفيق من غفوته ويرتقي إلى مستوى الزمن الذي يعيش فيه، وأن يستخدم قدراته الخاصة المتمثلة في حواسه الخمس. وكان التعبير الذي وضعه نيتشه لمن يصل إلى مرحلة النضوج.. حيث يكون قد تمكن من استغلال جميع حواسه بكامل قدراقا.. هو الإنسان المتفوق، أو "الســـوبرمان". ومـــثل هذا الإنسان في رأيه ليس في حاجة إلى الله لكي يـــتلقى منه الهداية، فقد كان يعتبر أن الله مجرد ظن وتخمين، وليس حقًا ويقيـــنًا. وكـــان يـــرى أن هذه الظنيات قد تولدت من نقص القدرات الفكرية خلال العصور التي لم يكن الإنسان فيها قد نضج بما يكفي لكي يكـــون سيد نفسه. والآن.. حيث بلغ الإنسان مرحلة النضوج الفكري، كما استخلص نيتشه في كتابه: "هكذا تكلم زراثوسترا "[#]- الذي يُعتبر الوحـــي الرمزي لفلسفة نيتشه، مشيرا فيه إلى أنه لم تعد هناك من حاجة إلى التمسك بأية ظنيات.

"في زمن ما كان المرء يقول الله.. حينما كان ينظر إلى أديم البحار؛
ولكني علمتك الآن أن تقول: الإنسان المتفوق (السوبرمان).
"إن الإله هو مجرد ظن، ولكني أرغب ألا يتجاوز ظنك إرادتك الخلاقة".

[#] انظر الملاحظة عن زرادشت في الفصل عن الزرادشتية. منه

١

"هل يمكن لك أن تفكر كإله؟ هذا هو ما يجب أن تعنيه الحقيقة لك: أن يـتحول كـل شيء إلى ما يمكن أن يتصوره الإنسان بفكره، وما يراه الإنسان، وما يلمسه الإنسان. فعليك أن تفكر من خلال حواسك وما يتعلق بها وما يترتب عليها".[٢]

"إن الإلـه ما هو إلا مجرد ظن، ولكن من الذي يستطيع أن يتخلص من صراع الظن إلا بالموت".[٣]

وخلاصة ما أدى إليه كتاب "هكذا تكلم زراثوسترا " هو تمرّد نيتشه على الإله الذي يعتبره مجرد ظن، وذلك الإله هو في الواقع.. تصور المسيحية عن الإله. ولكي نفهم لماذا تمرد زراثوسترا على الإله، فلا بد من قراءة الفصل بعنوان: "المتقاعد". ولكن يكفي هنا أن ندرك أن ما تتمخض عنه فلسفة نيتشه هو تحرير الإنسان من أن يكون أسير الهداية التي تأتيه من السماء، فإن نضوجه الفكري هو الذي يكفي لتحقيق هدايته.

نيتشه وإقبال

وهذه بالضبط كانت فلسفة إقبال التي أعلنها لإلغاء الحاجة إلى مجيء نبي، بعد أن وصـل نضوج الإنسان الفكري إلى قمة قدراتـه. وبـدلا من أن يستخدم العلامة إقـبال هـذه الفلسفة المستعارة والمقتبسة لإنكار الحاجة إلى الهداية الربانية، نراه قد طوّر فكرة النضوج الفكري بعض الشيء لتناسب أغراضه داخل الإطار الإسلامي. وبالرغم من أنه لا يزال يعترف بالحاجة إلى المعلِّـم الكامل والكتاب الكامل، ومادام ذلـك متوفرا، فهو لا يرى أن تؤرق السماء مضجع الإنسان بتدخلها في شـؤون هدايـته. ولكن ليس هذا كل ما في الأمر.. فإن عقيدة النضوج

الفكري، بعد التعديل الذي أدخله عليها إقبال، لا تلغي الحاجة إلى النبوة فحسب، وإنما تلغي كلية أيضا أية حاجة لوجود اتصال ما بين الله والإنسان، حتى ولو كان نوعا من الوحي غير وحي الأنبياء. ولا بد أن يكون هذا هو الاستنتاج المعقول الوحيد الذي تُفرزه عقيدته عن النضوج الفكري، فإن فكرة النضوج هذه تقتضي استقلالا كاملا للإنسان عن أية هداية سماوية إضافية في أي شكل من الأشكال. فهو قد صار من الكفاءة بمكان حتى إنه يستطيع أن يقرر لنفسه ما يشاء في ضوء ما مُنح له من هداية. فالإنسان.. كما يقول إقبال.. لم يعد طفلا تُمسك بإصبعه الصغير يدُ نبي لتعينه على أن يخطو بعض الخطوات إلى الأمام. ألم ينضج هذا الإنسان ويصل إلى سن البلوغ الفكري لكي يقرر أمر نفسه بنفسه؟ قد يبدو هذا المنطق معقولا لدى البعض، غير أن نظرة واحدة إلى التدهور الروحي والانحطاط الأخلاقي الشامل للإنسان اليوم.. تكفي لتبديد هذه الدعوى واعتبارها مجرد خيال ووهم مغلوط.

ولعل ما ذكرناه حتى الآن فيه الكفاية عن إقبال و دعاويه النظرية، ولنتحوّل الآن إلى الكلام عن المودودي.. وهو أحد العلماء المشهورين بين المسلمين من أهل السُّنة. وهو يؤكد على أن الانقطاع المطلق للنبوة بعد الرسول ﷺ إنما هو نعمة فريدة من الله تعالى على الإنسانية جمعاء. وهو يرى أن انقطاع النبوة هذا يعتبر برَكة خاصة للمسلمين.. لأنه يدفع عنهم على الدوام خطر قدوم نبي من الله تعالى ومن ثم عدم قبوله، وبذلك فهم في حصن حماية الله تعالى من أن يكونوا محل لعنة من الله كما لُعن الذين من قبلهم، لارتكابهم معصية الكفر بأنبياء الله في زمانهم. ونحن نرى أن وجهة النظر هذه تستحق أن تُعالج بدُعابة مضحكة بدلا من أن تعالج بمناقشة موضوعية، فالمثل الشائع يقول: شر البلية ما يُضحك.

وإذا كان من الممكن قبول فلسفة المودودي هذه، فإن هذا يعني ضمنيا أن النبوة نفسها كانت في الواقع لعنة، وإلا لما اعتُبر انقطاعُها نعمة.

إن هذا الأسلوب في التفكير يماثل تفكير بولس الذي وصم شريعة التوراة بأنها لعنة، وكان يؤمن بأن المسيح هو المخلّص لأنه ألغى هذه الشريعة، فقد كان بولس يرى أنه لو لم تكن هناك قوانين تشريعية يمكن أن تُنتهك، فلن تكون هناك معصية أو ذنوب يمكن أن تُرتكب.

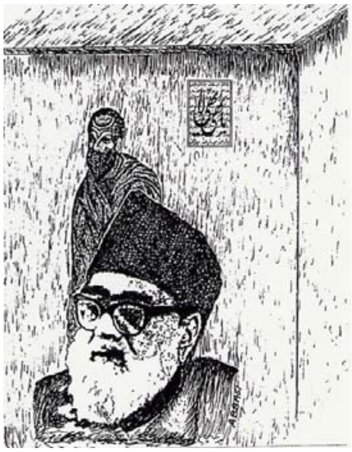

بولس والمودودي

إن فلسفة المودودي الهوائية هذه لم تنبع من أفكار بولس وحده، وإنما تعيد إلى الأذهان دعوى بهاء الله أيضا، فإن ما فعله المسيح بإلغاء شريعة التوراة حسب رأي بولس.. هو نفسه الذي ادّعى بهاء الله أنه فعله بإلغاء شريعة القرآن، وبذلك فقد أعلن نفسه ليكون محررا للإنسانية من ربقة القرآن. غير أنه لم يُقلد منهج بولس تقليدا كاملا، فإن بولس لم يدّع لنفسه أبدا أن الله قد تجسد فيه فصار مظهر الله، بل نسب هذه الألوهية كلية إلى المسيح، فالمسيح بالنسبة له كان في الواقع المحرر الذي أزال الخطأ الفادح الذي ارتكبه "الإله الأب" في حق الإنسان. فإن خلق شريعة إلهية في ذاته أمر يعادل خلق الخطيئة، وعلى ذلك يكون ما حققه يسوع بالفعل هو أنه دمّر التربة التي تنمو فيها الخطيئة، وذلك بإلغاء الشريعة الإلهية حسب رأي بولس. ويبدو أنه في نفس الوقت الذي قام فيه يسوع بتحرير الإنسانية، فإنه قام أيضا بتحرير "الإله الأب" من حماقة خلق الخطيئة.

وقد طبق بهاء الله هذه الفلسفة نفسها ولكن بطريقة جزئية، فادّعى بأن الشريعة القرآنية كانت بالغة الصعوبة ومرهقة، وبذلك فقد فقدت قيمتها بالنسبة للإنسان في العصر الحديث. لذا فقد ظن أنه بتحرير الإنسانية من هذا العبء الثقيل المرهق فإنه سوف يطلق الإنسانية من

إسارها. ولكن الأمر لم يكن تماما هكذا.. فقد جعل من نفسه "مُشرعًا" بعد أن ألغى الشريعة السابقة. ولكن عند تحليل النتيجة النهائية نجد أن بهاء الله لم يـــنجح إلا في ارتكاب الإساءة إلى الله تعالى وإلى نفسه. فالشريعة التي أملاها بهاء الله لتحل محل الشريعة القرآنية، لم تكن أكثر ولا أقل من إهانة وقحة للفكر والمنطق والعقلانية.

وبين هذيْن الحوارييْن الحديثيْن لبولس، أي بهاء الله والمودودي، ضاع كل شيء، ولم يعد يبدو أنه قد بقي شيء من الإسلام. فقد ادّعى بهاء الله أنـــه تخلص من الشريعة باسم التحرير من العبودية. وأما عن النبوة.. فقد شرع المودودي في القضاء عليها تحت عباءة فلسفة بولس. غير أن كليهما فشـــل في تحقـــيق أغراضه، ولم يُصفّق لهما ويعتبرهما من أبطال الفكر إلا أولئك الذين كانوا أمواتا من الوجهة الروحية.

غير أن المودودي لم يتبع منهج بولس تماما، فلم يذهب إلى ما ذهب إلـــيه بولـــس فيقول إنه كان يتعين على الله إلغاء شريعة القرآن، حتى لا يكون عدم اتباعها سببا في نزول لعنة الله على من لا يتبعها، بل إنه طبق مبدأ بولس فيما يتعلق بالنبوة فقط. فحتى إذا جاء أنبياء لا يحملون من الله تعـــالى أيـــة شريعة جديدة بعد الرسول ﷺ، فمن المتوقع في رأيه أن تقوم الأغلبية العظمى من المسلمين برفض الإيمان بهؤلاء الأنبياء، كما فعل ذلك الذيـــن من قبلهم، لذلك.. حسب المنطق المودودي.. سوف يظل سيف اللعـــنة مُصلَتًا على رقاب المسلمين. وفي تقدير المودودي بإلغاء مبدأ مجيء الأنبـــياء كلـــية بعد الرسول ﷺ، يكون الله تعالى قد أنعم على الإنسانية عامة، وعلى المسلمين خاصة، بنعمة لا مثيل لها.

ولو صح بالفعل انقطاع بعث الأنبياء.. لكي لا يتعرّض من يرفضهم مـــن الناس لنُزول اللعنة عليه.. فإن هذا يعادل تماما القول بأن مبدأ بعث الأنبياء نفسه كان سببا لنُزول اللعنة. وعلى هذا فإن فلسفة بولس الجديد تتطلـــب من الله تعالى أن يزيل لعنة النبوة كلية ليخلص الناس من اللعنة،

فما أعجبه من خلاص، وما أغربها من نجاة!

ولكـــن ينبغي أن يكون من المفهوم أن مبدأ المودودي هذا لا بد أن ينطبق على الماضي كما يريد تطبيقه على المستقبل. فلماذا أرسل الله تعالى عيســـى عليه السلام قبل الرسول ﷺ؟ ألم يذكر القرآن المجيد أن اليهود قد لُعنوا بســـبب كفـــرهم به وقولهم على مريم بهتانا وإثما مبينا؟ وما الذي حدث للأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله إلى العديد من الأمم؟ ألم يكفر الناس بهم وكانوا يستهزئون بهم ويسخرون منهم؟ ألا يكشف هذا عن حالة من العجرفة والغطرسة للسلوك الإنساني المستمر كما يبين ذلك القرآن المجيد:

﴿يَـــا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٦ يس:٣١)

ألـــيس من الغريب حقا أن الله تعالى لم يشأ أن يضع نهاية لهذه اللعنة الـــتي يكتســـبها الناس برفضهم الإيمان بالأنبياء؟ وما الذي حدث لليهود خـــلال تاريخهم الطويل وتعاملهم مع الأنبياء؟ ألم يلعنهم الله تعالى على لســـان داود عليه السلام؟ وما الذي حدث لأهل الكتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام؟

ألم يكـــن هذا السلوك العدواني الدائم والمستمر لتعامل الناس الظالم تجاه الأنبياء كافيا لأن يرى الله تعالى.. حسب رأي المودودي.. أن النبوة كانت سببا لنُزول اللعنة أكثر من أن تكون سببا لنُزول الرحمة؟ ولو كان الأمـــر كذلـــك حقا.. فلماذا أرسل الله نوحا ولوطا وإبراهيم؟ ألم يكن الكفـــر بهم سببا في نزول اللعنة على أقوامهم؟ وباستثناء القلة النادرة التي آمنـــت بهم.. ألم يُدمّرهم الله تعالى ويقض عليهم ويمح وجودهم من على وجه الأرض؟ وبرغم كل هذا فإن هذه الفكرة العجيبة التي خطرت على بـــال المودودي لم تخطر على بال الله عز وعلا. فهل كان السبب هو أن عقل المودودي هو الذي اخترع هذه الأسطورة ونسبها بسخافتها إلى الله

تعـــالى؟ إن هذا التخلف العقلي في الاستنتاج لهو خليق فقط بالأطفال لا بالرجال العاقلين. لقد ظل الله تعالى يرسل النبي بعد النبي رغم أن الإنسان المـــتعجرف ظـــل يكفر بالنبي تلو النبي. وعلى هذا فإن اللعنة التي عمّت أولـــئك الذين كفروا بالأنبياء لا يمكن أن يكون سببها هو بعث الأنبياء، فإن اللوم يقع على الناس أنفسهم.

ومـــرة أخرى.. لو أن مبدأ المودودي هذا كان مقبولا في أية مرحلة زمنـــية، فلا بد أن يكون مقبولا في كل مرحلة زمنية منذ بعث آدم عليه السلام ابتداءً. فخوفا من أن يكفر الناس بآدم، فتحل اللعنة عليهم، كان ينبغي ألا يبعـــث الله تعالى آدم على الإطلاق. وإذا كان المودودي يرى أن الخوف مـــن أن يكفر الناس بنبي من بين أتباع رسول الله.. يكون أقل منه مكانة وأدنى مقامـــا.. يعتـــبر سببا معقولا لانقطاع النبوة كلية، فإن نفس هذا الخـــوف كـــان ينبغي أن يكون سببا أقوى وأوْلى في عدم بعث الرسول الأرفع مكانة والأعظم مقاما ﷺ. ألم يكن ﷺ هو أعظم الأنبياء وأفضلهم قاطبة؟ بالطبع هو كذلك.. كما يشهد به العالم الإسلامي بأجمعه. وحيث إنـــه الأعظـــم بـــين الأنبياء، فلا شك أن الكفر به يستنْزل أكبر اللعنات وأشـــدها. فـــيا حسرة على المودودي.. الذي يبدو أنه قد نسي تماما أن معظـــم سكان العالم قد كفروا برسول الله عند بعثته، بل إن ثلاثة أرباع العـــالم اليوم لا يزالون ينكرونه ولا يصدقونه. وعلى أحسن تقدير.. فإن المؤمـــنين بالـــنبي ﷺ اليوم لا يزيدون عن ربع سكان العالم، ولكن.. هل إيمانهم بالنبي ﷺ يُعتبر إيمانا صادقا صحيحا يجعلهم في عداد المؤمنين حقا؟ إن المـــودودي نفسه يرى غير ذلك، بل إنه يرى إن من بين المليار مسلم الموجوديـــن الـــيوم.. هـــناك ٩٩٩ من كل ألف منهم مدانون من قبل المودودي بأنهم غير مسلمين، إذ يقول المودودي:

"إن في هـــذا المزيج الضخم مما يسمى بالمسلمين.. هناك ٩٩٩ من بين كـــل ألـــف لا يعرفون شيئا مطلقا عن الإسلام. وهم لا يستطيعون أن

يفرقوا بين الصواب والخطأ، ولا يمت سلوكهم الأخلاقي أو الفكري بأية صلة إلى الإسلام. فمن الأب إلى الابن، ومن الجد إلى الحفيد، قد ورثوا الاسم الإسلامي فقط، ولا أكثر من هذا".[٤]

ويبدو من وصف المودودي لأوضاع المسلمين عامة وما انتهت إليه الأمور أنه كان ينبغي على الله تعالى ألا يرسل رسولا ولا أن يُنْزل كتابا، حتى لا يكون عباده المساكين موضعا للعنته المستمرة، أو محلا لنُزول سخطه وغضبه الدائم عليهم.

ومع ذلك فإن المودودي يؤمن بوجود المبرر الكافي لله تعالى في إرسال جميع أنبيائه منذ زمن آدم عليه السلام إلى زمن أفضلهم وأعظمهم ﷺ. فإذا كان الكفر بأي منهم قد استنْزل اللعنة على الكافرين، فما هو الضرر الفادح الذي يحل بالإنسانية إذا أضيف إلى قائمة الأنبياء نبي آخر؟ إن هذا التناقض الواضح في عبارات المودودي وفلسفته يصير أشد قبحا حين يتبين أنه هو نفسه كان يؤمن بعودة المسيح عليه السلام نبيا من الله تعالى!

فإذا بعث الله تعالى نبيا بغير شريعة.. من بين المسلمين أنفسهم.. بدلا من عودة عيسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى في قديم الزمان نبيا إلى بني إسرائيل، فكيف تُغير بعثة النبي الجديد هذه السُّنة الأزلية في استنْزال اللعنة على الكافرين؟ ولماذا تكون بعثة هذا النبي الجديد وحده هي محل الاعتراض خوفا من نزول اللعنة، بينما كان الكفر بأي نبي من بين جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ زمن آدم عليه السلام.. سببا لاستمرار نُزول اللعنة على الكافرين؟

المـــــــــراجع

1. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.197
2. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.198
3. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.370-375
4. MAUDOODI, SYED ABUL-A'ALA. *Musalmān Aur Maujoodah Siyasi Kashmakash.* 1st ed. Vol.III. Published by Maktabah Jama'at-i-Islāmi, Dār-ul-Islām, Jamālpur, Pathānkot, p.130